سليمان الباروني

(المعلم المقاتل)



تأليف: فاضل السباعي و أخرون



أعده للنشر تامغناست مع ملاحظة أننا قمنا بتصحيح بعض
النصوص التاريخية في الرواية

سليمان الباروني

(المعلم المقاتل)

تأليف: فاضل السباعي و أخرون



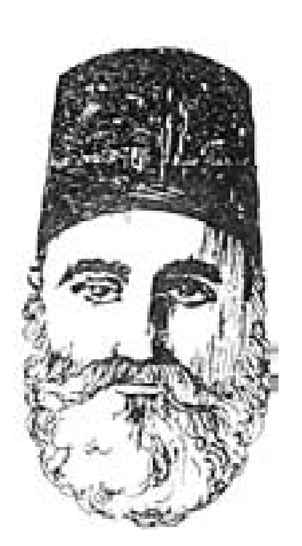
رسالة ... وخصال

فـي عام مـا، من عشـرينات القرن العشـرين، كتـب أبٌ من "طرابلس الغَرب" إلى ابنه الفتى، الذي يتلقّى العلم خارج البلاد، رسالة أبوية، يُعلمه فيها بمنزلة جدوده عبر التاريخ... يقول:

"اقـرأ هذه الرسـالة المشـتملة علـى تاريخ أجـدادك، يا بني، لتعلم أنك من سـلالة رجال علم وحكومة، ثم اختر لنفسـك أن تكـون عالما جليلا أو حاكمـا عادلا، ومع ذلـك لا تعتمد على فخر الجـدود، بدون أن تتحلّى بحليتهـم وتقتفي أثرهم، فانه إذا اجتمع في الإنسـان تمجيده بأعماله وأعمال جدوده، كان جامعاً لصفات الحمد، فأجهد نفسـك أن يكون لك مجد اكتسابيٌّ ذاتي، تجمعه إلـى مجد جدودك." فتكون كاملا، معظّماً بين أقرانك، يفتخر بك أبناؤك من بعدك، والله يلهمك الرشاد)).

ثم يروح يسـرد على ولده صفحاتٍ مـا دونته كتب التاريخ من أمجـاد جدوده، الذين كان منهم الأمراء وكان الأئمة، وكانوا دائماً يتصفون بالعلم والتقوى، والأخلاق الحميدة والخصال الجيدة.

ذلـك الأب هو "سـليمان الباروني"... الـذي كان واحداً من ألمع قـادة الجهاد فـي ليبيا، أيام الغزو الإيطالي الأثيم، وكان له شـأن كبير في توجيه دفّة سياستها خلال فترة من عمر الزمان.



وكانت، في انتظار "سليمان الباروني"، مصادفةٌ من مصادفات القدر النادرة... ومنها بدأ رحلته الأولى في العذاب!

البداية ... وراء القضبان!

ولد "سليمان بن عبد الله الباروني" سنة 1287 هجرية (1870 ميلادية)، في مدينة "جادو" من أعمال "جبل نفوسة" - الواقع إلى الجنوب من مدينة طرابلس الغرب، في ليبيا اليوم.

وإذا بلغ الثامنة عشرة من عمره، بعثه أبوه إلى تونس حيث تلقى العلوم الدينية، في "جامع الزيتونة"، على أيدي كبار أساتذته وعلمائه. وقد لبث في تونس خمس سنوات خمس، ارتحل بعدها إلى مصر، فدرس في "الأزهر" الشريف مدة ثلاث سنوات، ثم غادرها إلى الجزائر ليستكمل علومه في "وادي ميزاب" على يد "الشيخ طفيش" عالم الدين الشهير في زمانه.

فلما آن له أن يعود إلى طرابلس، من رحلته العلمية الطويلة، كان قد بلغ الثامنة والعشرين... فاغترب بذلك من العلم ومن تجارب الحياة ما يؤهله لأن يخوض غمار تجارب جديدة تكون أكثر عمقاً ونفعاً.

وهل كان يدري ما تخبئه له الأقدار؟

******

إن أول ما يستلفت نظر الباحث في حياة "سليمان الباروني"

الشاب، هو حبه للأدب، وإخلاصه للدين، وتطلعه إلى بناء دولة إسلامية ترقى إلى ما يليق بها من مستوى بين أمم الأرض.

وهكذا كان إعجابه بالغا بدولة آل عثمان، التي تجمع بعض الشعوب العربية والإسلامية... وعندما كان يمرن يده على "الخط العربي"، كان يطيب له أن يجلو خطه بكتابة أسماء سلاطين آل عثمان الذين يحبهم... وربما قلد - متأنقا - "الطغراء" العثمانية الشهيرة ... وربما أمعن في تسليته، فخط، على وريقة صغيرة، طغراء باسمه، على نحو ما يعبث شاب حالم: "السلطان سليمان الباروني". ثم جعل هذه الوريقة بين أوراقه الخاصة!

وإذا نزوعه الديني قد حمله على أن يشرع - وهو في رحلته العلمية الأخيرة - في تأليف رسالة عن "المذهب الإباضي"، فأنه كان، إلى ذلك، متحرر الفكر، يتطلع إلى الأخذ بأسباب الحضارة الحديثة... وله في ذلك مواقف ونوادر، منها أنه كان في مجلس أستاذه "الشيخ طفيش"، الذي ينكر التصوير الفوتوغرافي ويعده بدعة! وكانت الحرب عامئذ قائمة بين الدولة العثمانية واليونان. فأخذ الباروني الشاب يحدث أستاذه عن انتصارات العثمانيين المظفرة على أعدائهم، ويُطلعه في ذلك على مجلة مصورة، شارحا له ما فيها من صور تمثل "أبطال آل عثمان وهم على صهوات خيولهم، وجنود اليونان صرعى هنا و هناك"...

ففرح الشيخ بذلك فرحا شديدا وكان صاحب نكتة، فقال:

- إن كان التصوير هكذا، فهو حسن إذاً!

عـاد "سـليمان البـاروني إلى وطنـه الصغير طرابلس، سـنة 1898، على جناحي شـوق، يحدو به حب وحنين، وعزم مكين على خدمة أمته، والإسهام في رفع مستواها بين الأمم.

ولكن كان في انتظاره مصادفة شـقية من مصادفات القدر النـادرة... ومن هـذه المصادفة بـدأ "البـاروني " رحلتـه الأولى في العذاب!

عنـد وصوله إلـى طرابلس الحبيبة، ومعه مـن المتاع ما معه، فتشـه رجـال السـلطة، ودققوا فـي التفتيـش... فوجـدوا في أمتعته.

ماذا وجدوا؟

مسـودات الكتـاب، الـذي هـو بصـدد تأليفه عـن "المذهب الإباضـي"، ذلك المذهـب "الخارجي، الذي – كما قيـل – لا يعترف بالخلافة العثمانية، ويحض على الخروج عليها!

وقرءوا، في رسـالة بين أوراقه الخاصة، كان قد تلقاها من ناقم على العثمانيين: "... وأما الدولة العثمانية، فهي أشـبه بسراب، يحسبه الضمان ماء: حتى إذا جاءه لم يجده شيئا "!

دليل ثانٍ، أشد من الأول نكرا!!

وأمـا ثالثة الأثافـي، فتلك "الطغـراء" المقلـدة، التي خطها الشـاب سـليمان يوما، وتأنق في خطها: "السـلطان سـليمان الباروني"!!!

أدلـة ثلاثة، كفيلة بأن تقدم عنقه – في ذلك العهد وفي كل

عهد يشيع فيه الدس والتجسـس والتأويل – لقمة سائغة إلى ... حبل المشنقة، وهو المتفاني في حب آل عثمان! وأنى له أن يبرئ ساحته من هذه التهم، الدامغة، الباطلة؟!

وأوقف "سليمات الباروني" رهن التحقيق...

ثم حوكم...

وحكم عليـه بالحبس المؤبد! فالتُهم كانت جسـيمة، وتصب كلها في جريمة واحدة: العمل ضد أمن الدولة!

وهاج النـاس لمَّا تسـامعوا بالحكم. واسـتاء العقلاء، ومنهم الوالي العثماني "هاشـم باشا" نفسه، نظرا لما يعرفون من براءة "الباروني"، وصدقه، وإخلاصه.

وتسـكينا للخواطر أخلت محكمة الاستئناف سبيله مؤقتاً، بكفالـة جماعة من الأعيان، علـى أن يحلف على المصحف على الإخلاص للدولة والسلطان.

ثم ... بإشارة من الوالي – الذي كان يرى في الشاب "سليمان" ابنا له عزيزا – أصدرت المحكمة – بالأغلبية – حكما بالبراءة.

ويا لها من فرحة عمت أصحابه وقومه!

خمسـون فارسا صحبوا الشاب – العائد من رحلته العلمية، المطلـق سـراحه – إلـى مدينة "فسّـاطو" في جبل نفوسـة ... وهنـاك نحرت الخراف، وأقيمت المآدب... ولا أحد يأكل أو يشـرب إلا من بيت ... الباروني!

انجلت الغُمة الطارئة، إذن..

ولكن الغمة الطارئة، لم تنجلِ!

كان حكـم البراءة قد رُفع في حينه - عام 1898 - إلى المراجع العليا في الآستانة... حيث تنقل، هناك، بـ"إضبارة الدعوى"، من دائرة إلى دائرة، عاما، ثم عاماً آخر...

وإذا المراجع العليا لا ترى في الدعوى إلا الأدلة الدامغة، فحكم المحكمة بالبراءة إذن مناف للقانون! فتنقض الحكم، وترد الدعوى إلى طرابلس، وتطلب إعادة النظر فيها من جديد، على مقتضى الحق والعدل!!

وكم كان صعبا أن يلقى القبض، في يوم من أيام العام 1900، على "سليمان الباروني، وهو بين أهله وعشيرته!

وذلك ما اضطر قائمقام "فسّاطو"، "محمد بك الأسير" (البيروتي)، إلى أن يتولى بنفسه القيام بهذا الإجراء القاسي، ترافقه قوة من الدرك والمشائخ.

******

وتلقى "سليمان الباروني" الحكم بالحبس مدة خمس سنين... على أن يقضيها في جزيرة "رودس".

واضطرب الجبل لهذا الحكم الغريب الجائر، فرأى "النائب العام" إبقاء "السجين" في طرابلس، خشية الفتنة.

فلبث في سجن طرابلس، المخصص للمنفيين من الترك، فترة كان خلالها الوالي الآخر "حافظ باشا"، يقوم بمساع حميدة لتخفيف الحكم عنه... فأطلق سراحه بعد عام، بضمانة أعيان

الجبل وأعيان طرابلس، على أن يبقى - مع ذلك - تحت أعين الشرطة، فلا يتجاوز سور طرابلس طوال العام التالي...

وكان - وهو وراء القضبان - قوى الإيمان بعدالة الله، لم يتسرب الوهن إلى نفسه قط... وما كفَّ عن نظم الأشعار، فكان يتغنى في السجن منشداً:

الروضُ بإكرها الغمامُ، وهزها
روح النسيم، فغنت الأطيارُ

وتعانقت أغصانها، وتبسمت
منها الزهور، وفاحت الأنوار

وبدا لألحان الحمام ترنمٌ
باسم الجليل المجتبي المختار

فهل كان محض مصادفة أن يُلقى بـ"سليمان الباروني" وراء القضبان، ليبدي ما يبدي من الصبر والتجلد واحتمال الشدائد، تلك السمات التي سترافقه في سائر مراحل حياته المقبلة؟

******

"الأسد الإسلامي"

كانت بدايةٌ غير سعيدة لشاب يطمح إلى بناء حياةٍ سعيدة، خصيبة، حافلةٍ بجلائل الأعمال.

وبدا أن "سليمان الباروني" ، المطلق السراح منذ عام 1902، لم تعد تميل نفسه إلى البقاء في طرابلس... فغادرها إلى مدينة "يفرن"(مركز جبل نفوسة)، وقد قدَّر أن في استطاعته أن يعمل بحرية، بعيداً عن أعين الرقباء، وعن المكائد التي تحوكها المصادفات الشقية!

وكانت في الصدر مطامحُ، وفي القلب آمالٌ كبار: التأليفُ يمارسه، والشعرُ، والتعليم...

فكان أن أسس، في عام 1904، مدرسةً في "يفرن" سمّاها "المدرسة البارونية"، وعقد لافتتاحها حفلاً رائعاً.

وتولى الإشراف عليها أبوه "الشيخ عبد الله الباروني". وأخذت المدرسة تعلّم: القرآن، والحديث، والفقه، وعلم الكلام، واللغة العربية... الخ.

وأنشأ، جوار المدرسة، مكتبة سماها "المكتبة البارونية"، وضم إليها نفائس الكتب والمخطوطات.

وتابع، في هذه الفترة، تأليف كتابه – الذي عد قبل سنوات دليلا على اعتناقه فكرة الخروج على الخلافة العثمانية! - :

"الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية". فجاء في ثلاثة أجزاء .. فضلا عما حقق من كتب مخطوطة، وما حرر من مقالات، ونظم من قصائد جمعتها مخطوطة "ديوان الباروني"..

*****

ثم ... لسنا ندري أية ريح طيبة حملت :سليمان الباروني:، من جديد، إلى أرض الكنانة! ولعلها حبه الجارف للأدب والتأليف، بعد أن اضطرته الأحداث إلى أن يلفت وجهه بعيدا عن السياسة ومصادفاتها الشقية.

ونراه يؤسس في "شارع محمد علي" بالقاهرة، عام 1906 ، مطبعة سماها "مطبعة الأزهار البارونية". وأخذ يطبع فيها ما يراه نافعا ونفيسا من كتب الحديث والتاريخ والأدب:

ففي الحديث طبع "حاشية الشيخ السالمي على مسند الإمام الربيع بن حبيب".

وفي التاريخ: "الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية".

وطبع في الشعر: ديوان "السيف النقَّاد" للشيخ الحضرمي، وديوان "القلائد الذرية" للشيخ عمر التندميري.. فضلا عن "ديوان الباروني".

*****

كانت في الرجل طاقة خلاقة ومنتجة ... والمطبعة لم يؤسسها من أجل أن يطبع الكتب وحسب.

كان يكتب المقالات، ثم يرى الجرائد لا تطيق نشرها لما فيها من جسارة، فيحز ذلك في نفسه (كما صارح ابنته "زعيمة" ذات يوم) ... فلم لا يصدر هو جريدة في مصر، والمطبعة باتت جاهزة، فيتاح له مجال القول، ويبث على صفحاتها روح الإسلام على أوسع نطاق؟

وفي أوائل ابريل 1908 (بيع الأول 1326 هـ)، أصدر جريدته "الأسد الإسلامي" ... ومما جاء في افتتاحية العدد الأول منها:

• "... فاستخرت الله تعالى، وسألته الإعانة على إنشاء "الأسد الإسلامي"، وإصداره أسبوعيا مؤقتا في مصر، وهيأت له مطبعة من أحسن صنف تامة الاستعداد، ومحلا معتبرا يليق بإدارته... "(1)

ولما كان اتحاد المسلمين هو الهدف الذي يسعى "الباروني" المؤمن إلى تحقيقه، ولما كان تفرق كلمة المسلمين هو الأمر الذي يشغله ويقلقه، فقد عمد إلى أن يطرح على علماء الإسلام وكتّابه جملة أسئلة، منها:

• هل توافق على أن من أقوى أسباب تفرق المسلمين، تعدد المذاهب وتباينها؟

• على فرض عدم الموافقة ذلك، فما هي في رائك أسباب التفرقة؟

(1) "صفحات خالدة من الجهاد"، القاهرة 1964، عنيت بجمعها "زعيمة سليمان الباروني"، الجزء الأول ص13 ، وفي الكتاب كل متا نشر في أعداد "الأسد الإسلامي" من مواد.

• على فرض الموافقة، فهل يمكن توحيدها (المذاهب) بالجمع بين أقوالها المتباينة وإلغاء التعدد، في هذا الزمن الذي نحن فيه أحوج إلى الإتحاد قبل كل شيء؟ .. الخ.

وفي مقال له طويل، عنوناه "الجامعة الإسلامية"، كتب يقول:

• "يوجد الآن من الفرق الإسلامية، المتباغضة، عدد وافر... فلو أرسلت كل فرقة وفداً من علمائها إلى اليابان للدعوة إلى الإسلام، ومال الإمبراطور "الميكادو"" بفطرته إلى قبول الإسلام، وطلب منهم بيان تعاليمه ومبادئه، ورأى منهم بعض الاختلاف .. فما يقول "الميكادو " في الإسلام يا ترى؟

"ثم إذا علم بوجود المذاهب، وطلب بيان أصحِّها بالاتفاق ليتبعه، فماذا يكون الجواب؟"

"وهل يقبل التمويه بأن المذاهب كلها سواء، وأنها تغترف من بحر واحد؟"

وقد صدر العدد الثاني من "الأسد الإسلامي " بعد أيام من صدور الأول، ثم صدر الثالث في 23 ابريل 1908... وبعده توقفت الجريدة عن الصدور.

******

هل أراد "سليمان الباروني " أن يصرف - بالتأليف والصحافة - نفسه عن العمل السياسي؟

ولكن كيف يتخلى عن مطامحه السياسية، وهو الشاعر،

والخطيب الذي هزَّ المنابر والمشاعر، والوطني العاشق لأرضه، الداعية إلى الإتحاد الإسلامي، وإلى توحيد الكلمة، وإلى النهوض والترقي؟.

وفي صيف 1908، ولد في الدولة العثمانية "الدستور" الجديد الذي وسع على الناس من حرياتهم، حتى خيِّل للقلوب الطامحة أن فجرا يوشك أن يبزغ في أفق "الدولة العليّة"، وأن الليل الطويل يوشك أن ينجلي.

نودي بالدستور.

وفي الدستور أن يؤسس "مجلس المبعوثات" أو برلمان الأمة.

"طرابلس الغرب" هي إحدى ولايات الدولة العثمانية ..

ومن مقاطعات هذه الولاية: جبل نفوسة... ومن أعيان الجبل: "سليمان الباروني"، الرجل الطموح، الذي نفي بالأمس نفسه عن بلاده مختاراً ... ولكن حنكته، التي أكسبته إياها أعوام عمره الثمانية والثلاثون، غيرها حنكة الأمس... أفلا يرشح نفسه للانتخابات، والجبل من ورائه مؤيدا؟

على انه كان لأبيه "الشيخ عبد الله"، في هذا الترشيح رأي مغاير. لقد جعلته عاطفة الأبوة يخشى على ابنه الأكبر من تقلبات السياسة وحبائلها وتصاريفها، ولم ينس، بعد، ما كان بالأمس القريب... فمنعه من أن يخوض هذا الغمار!

فما العمل؟

والابن بـرٌّ بوالده، لا يعصى له أمرا. ولكنه أيضا، تواق إلى أن

يغدو ممثلا لوطنه في "مجلس المبعوثان"!

المطامح تملأ الصد، والكفأة متوافرة، وأهل الجبل من ورائه يفدونه بالمهج.. وإنها لفرصةٌ، إن لم يغتنمها اليوم، ضاعت إلى حين لا يعرف أحد مداه.

وتفتق ذهن الابن عن حيلة لطيفة بارعة... ذلك أنه أخذ كتاباً، فيه وصية من "كسرى أنو شروان" إلى ابنه خلاصتها: أننا عشنا في زماننا بما يلائمه، فعليكم أنتم أن تعيشوا بما يلائم زمانكم!

قدَّم "سليمان" الكتاب إلى والده ليقرأه، وقد أشار بالقلم إلى موضع القصة فيه.

فكان أن أدرك الأبُ المغزى الذي يرمي إليه ابنه، فأقره على المضي في معركة الانتخاب.

وقد خاضها "سليمان الباروني"...

وغد نائبا في "مجلس المبعوثان"...

فانفتح بذلك أمامه عهدٌ جديدٌ.

فلم يكد يبلغ مسامع الناس نبأ ظهور قطع الأسطول الإيطالي في مياه مدينة طرابلس، حتى اجتمع- عند الباروني- كثيرٌ من رؤساء القبائل العربية والأمازيغية، وتفاوضوا في وضع ميثاق يُديرون بمقتضاه دفة الدفاع عن الوطن، ويبنون على أساسه قواعد الجهاد.

غزاة من البحر!

أصبح "سليمان الباروني" نائباً، في "مجلس المبعوثان" بالآستانة، عن الجبل الغربي في ولاية طرابلس، منذ عام 1908.

وفي هذه الأثناء، كانت إيطاليا تَمُدُّ بصرها من الشاطئ الآخر من البحر الأبيض المتوسط نحو ليبيا، تريد أن "تلتهمها"، لتعيد بها أمجاد "الإمبراطورية الرومانية" الزائلة!

والحق، إن الدولة العثمانية كانت قد أهملت- في عهد حكم "جمعية الاتحاد والترقي"، ذات النزعة التركية- ولايتي طرابلس الغرب وبرقة إهمالاً جلياً، من ناحيةِ تعزيزها بالسلاح والجند، حتى لكأن هاتين الولايتين الإسلاميتين ليستا من جسد الدولة العثمانية، وذلك كله على رغم تعلق أبنائها بالخلافة الإسلامية بدافع ديني خالص.

وهكذا وجهت إيطاليا، في يوم الأربعاء 7 سبتمبر 911، إنذارا إلى الدولة العثمانية ... تؤاخذها فيه على إهمالها شأن طرابلس وبرقة وعدم السير بهما في مضمار "التمدن". فأمر الولايتين – كما يدعي الإنذار – يهم إيطاليا لقربهما من شواطئها!..

وزعم هذا الإنذار – الحافل بالتجني – أن ثمة تحريضا في طرابلس على الرعايا الأوروبيين، والطليان منهم خاصة!

ويمضي هذا الإنذار العجيب، إلى القول بأنه لما كانت الحكومة الإيطالية حريصة على شرفها ومصالحها (كذا!!) فقد "قررت أن تحتل طرابلس وبنغازي احتلالا عسكريا، فذلك هو الحل الوحيد"! .. وأن على الحكومة العثمانية أن تصدر أوامرها حتى لا يلقى الاحتلال مقاومة!! .. وأن ترسل الجواب الحاسم على الإنذار خلال أربع وعشرين ساعة!!!

ثم ظهرت قطع الأسطول الإيطالي في مياه طرابلس مساء الخميس 28 منه.

******

كان "سليمان الباروني" ، حينئذ، في "يفرن" مركز جبل نفوسة، وقد حضر من الآستانة لتعزية والده بوفاة والدته.

فلم يكد يبلغ مسامع الناس نبأ ظهور قطع الأسطول في مياه مدينة طرابلس، حتى اجتمع، عند "الباروني" في "يفرن"، كثيرٌ من رؤساء القبائل العربية والأمازيغية، وتفاوضوا في ميثاق يُديرون بمقتضاه دفة الدفاع عن الوطن، ويبنون على أساسه قواعد الجهاد...

وكان من أول الأسس التي قرروها إن ما يجمع الناس في الجهاد هو "الجيش الإسلامي الطرابلسي". وأن المجاهدين إخوان في الإسلام، ضاربين عرض الحائط بالاختلافات المذهبية (مالكي

أو أباضي) والعنصرية (عربي أو أمازيغي).

ثم طيروا برقية إلى المسئولين في الولاية، يبلغونهم استعدادهم لبذل النفس والنفيس دفاعا عن الوطن، متسابقين إلى نيل المنازل العليا التي وعد الله بها الشهداء.

فجاءهم الرد بأن الباخرة العثمانية "درنة" قد وصلت أخبرا محملة بالسلاح والذخيرة، وطلب المسئولون منهم التريث والثبات.

ثم وجه "سليمان الباروني" نداء عاماً إلى المسلمين في حيز طرابلس، يستنهض الهمم ويحض على الجهاد دفاعا عن الدين والوطن.. وهذا نصه (مختصراً):

- بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم.

- أيها الناس.

اعلموا أنه قضاء الله وقدره أ. سلط على وطننا، امتحانا لنا، دولة خسيسة تستهين بالإسلام، فسولت لها نفسها الخبيثة الاستيلاء على بلادنا، وغصب أراضينا ونسائنا، واستخدام أبنائنا كالعبيد، لا بلغها الله ذلك.. ومراكبها الحربية واقفة الآن في البحر أمام المدينة تنتظر الأوامر من دولتها بالهجوم على ولايتنا.

وقد استعد إخواننا أهالي الشطوط والمدينة لصد غاراتها وتشتيت جموعها، وفتحوا دفاتر لتقييد المجاهدين.

وها أنا أيضا فتحت دفاتر في مركز القضاء، لتقييد المجاهدين، وقيدت اسمي فيه.

وها نحن ندعوكم، يا كافة إخواننا، "رجبان" و"زنتان" و"الرحيبات" و"حرابة" و"حوامد" و"اولاد بوسيف" و"منايضة" و"محاميد" وغيرهم من القبائل، وخصوصا أهالي قرى الجبل الكرام، بالقدوم بسرعة لأجل الدود عن الوطن والإسلام وحفضاً لشرف الأهل والأولاد.

"فإن الحجة قد قامت عليكم، وفرض الجهاد قد تعين على كل فرد منكم إلا العاجز الذي لا طاقة له.

وها هو وطنكم العزيز يناديكم، ودينكم القديم يستنجدكم، ونبيكم محمد صلى الله عليه وسلم يخاطبكم من قبره بقوله: "الجنة تحت ظلال السيوف"، وبقوله تعالى: "جاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله"...

"الجهاد الجهاد"، "البدار البدار"، "النفير النفير، لا يُقبل عذرٌ ولا تأخير".

"اللهم، يا من بيده ملكوتُ كل شئ، امنحْ لنا رقابهم، واقذف الرعب في قلوبهم، وكثر عددنا في أعينهم، وشتت شملهم، ومزق جموعهم، وأردد كيدهم في نحورهم، يا أرحم الراحمين".

"وآخر دعواتي أن الحمد لله رب العالمين".

"سليمان الباروني"

*****

وطاش سهم العدو، بعد "معركة المنشية" التي اندحر فيها، وفقد صوابه، فقام جنوده بتقتيل السكان كيفما اتفق، فتمرغت هيبة هذا الجيش الهمجي بالوحل والجريمة أمام الرأي العام العالمي!

ومضى حولٌ كامل

ظهـرت قطع الأسـطول الإيطالي فـي ميـاه طرابلس، يوم الخميس 28 أيلول (سبتمبر) 1911.

وفــي يوم الثلاثاء 2 تشــرين الأول (أكتوبر)، وجّــه قائده إنذاراً إلى الحامية العثمانية بأن تستسلم... فلما أبت، شرع الأسطول بقصف المدينة عصر اليوم التالي، الأربعاء.. ثم أنزل- يوم الجمعة 5 منــه- قوة من البحارة. فدخلت طرابلس دون مقاومة، لأن الحامية كانت قد آثرت أن تغادر المدينة كي تتمركز في جنوبها، ومن هناك يبدأون نزالهم للمعتدين وهم على اليابسة.

انضـم المجاهــدون بزعامة "سـليمان الباروني"، إلــى إخوانهم المجاهديــن من القبائل الأخرى، ووقفــوا جنباً إلى جنب مع الحامية العثمانيــة بقادتها – مــن الترك والعرب والأمازيــغ – الذين أبدوا استبسالا نادرا كاد يُغطّي الإهمال الطويل الذي عاملت به دولة آل عثمان هذا القطر الفقير بمــوارده.. لولا أن قوة المعتدين كانت مــن الوفرة والتفوق إلى حد يعجز عن دحرها ما في أيدي الليبيين والترك من أسلحة هي، على تخلف طرازها، قليلة شحيحة.

علــى أنه وإن لم يســتطع المجاهدون والحاميــة العثمانية دحر الغزاة ورميهم في البحر، لقد وفقوا إلى القيام بأمر عظيم أذهل

المعتدين وأرغمهم على إعادة حساباتهم وتقديراتهم!

لقــد ظــنَّ الطليــان، بــادئ ذي بــدء، أن حملتهــم، المتوجهة إلــى كل مــن طرابلس وبنغازي، لــن تكون ســوى.. "نزهة بحرية": أســبوعان، ويفرغــون مــن احتــلال كل مناطق الولايتــين.. فهم قوةٌ، وفي الشــاطئ الليبي ضعف وتخاذل وتمــزق!!. فإذا هم يرون الضعــف مقاومــة صامدة لئــن لم تمنعهــم مــن أن ينزلوا في مســاحة صغيرة من أرض طرابلس، لقد أعاقتهم عن التوســع.. وها قد تقضى الأســبوعان، وهم حيث هم، في شريط من الأرض ضيق لا يستطيعون تجاوزه، فإذا رغبوا ردتهم قوات المجاهدين على أعقابهم خاسرين!

ولعل من أروع المعارك التي خاضها المجاهدون – وستظل تذكر على مرّ الزمن – معركة "الهاني – شارع الشط" (وتسمى، أيضا، معركة "المنشية"): لقد واجه فيها الإيطاليون، يوم تشرين الأول (أكتوبــر) 1911، هجوما أماميا شــنه المجاهــدون، وهجوما خلفيا شــنه ســكان المنازل الواقعــة داخــل الرقعة المحتلة مــن الأرض. فتكبّد العدو – وباعترافه – خسائر فادحة تفوق كثيرا كل ما كان يقدِّر. فقد تشتت جيشــه، ولوحق جنوده، وطوردوا، وقتلوا تقتيلا، حتــى لم يكد يبقى أحــد من أفراد الأورطتين الرابعة والخامســة وفرقة "البرســاليري" الحادية عشرة.. بل إن قائد الحملة – وأسمه "بريتــش" – التجــأ في أثناء المعركة، هو وبعــض جنوده، إلى احد بيــوت الطرابلســيين فتحصنوا فيــه، ولكن المجاهدين تســلقوا جدرانه، ونزلوا عليهم، وقتلوهم، فلم ينج من الملتجئين إلا اثنان!

بعد هذه المعركة طاش سهم العدو وفقد صوابه. فقام جنوده بتقتيل السكان كيفما اتفق. فتمرغت هيبة هذا الجيش الهمجي بالوحل أمام الرأي العام العامي. بعد ما نقل المراسلون الحربيون الأجانب المرافقون للحملة، ما شاهدوه بأم أعينهم من الأعمال الانتقامية ضد الأهالي مما يعجز العقل البشري عن تصوره:

فقد كانوا يقتلون الأهالي جزاف، من شيوخ وعجائز وأطفال في بيوتهم، ويقتلون الأطفال على مشهد من والديهم.. ويتركون القتلى في الشوارع حتى تتعفّن أجسامهم، ويدعون الجرحى حيث هم يئنون، وعلى مرأى من رجال الصليب الأحمر، حتى تفيض أرواحهم إلى خالقها.

******

أحدثت بطولات المجاهدين في معركة "المنشية"، صدمة شديدة للطليان، ونبهتهم إلى خطأهم في تقدير قوة الليبيين، وكفوا - من يومها – عن الظن بأن حملتهم للاحتلال هي "نزهة بحرية". وأخذوا يفكرون: كيف يستطيعون أن يحتلوا مزيدا من الأرض بعدد أقل من الضحايا. فقد أعجزهم أن يدفعوا إلى الحرب بمزيد من الجند من أجل أن يحتلوا الأرض شبرا فشبرا!

وتوالت المعارك.

وإذا المجاهدون يُضطرون – بأسلحتهم القليلة – إلى التراجع أحيانا. فأنهم كانوا يثخنون في العدو ويُنزلون به افدح الخسائر.

وكم كان تقدم العدو بطيئاً! وعندما أراد أن يوسع من رقعة الأرض التي يقف عليها في مدينة طرابلس، ورأى أن يحتل "عين زارة" القريبة، طلب المدد من الحكومة الإيطالية، وجهّز حملة كبرى قوامها خمسة عشر ألف جندي مزودين بأحدث آلات الحرب.

ويقول المجاهدون، يصفون هذا الجيش في يوم زحفه في 4 ديسمبر 1911 : إن الإنسان، إذا ما نظر إلى هذا الجيش، لا يرى إلا أجساما بشرية تتحرك في مسافة من الأرض، تبتدئ من "قرقاش"، وتملا ما بين "جنزور" و"المنشية"!

كل هذه الاستعدادات كانت من أجل مجابهة المجاهدين، الذين كانوا يمسكون بأيديهم سلاحا قليلا، فإنه يعمر صدورهم إيمان بالحق والوطن والدين، واستبسال ما ينقضي.

وطبّلت أبواق الطليان لاحتلال "عين زارة"! وما "عين زارة"، آخر الأمر، إلا موقع صغير، وذلك كله بعد نزول الغزاة على الشاطئ بستين يوما.. وهم – بعد – في رقعة من الأرض تحيط بمدينة طرابلس ليس إلا.

******

وفيما كان المجاهدون يبذلون كل طاقاتهم في النضال ضد الغزاة، كانت الإشاعات تتكاثر من أن الدولة الأوربية تسعى إلى حمل الدولة العثمانية على "عقد صلح" مع ايطاليا المعتدية... فكان لهذه الإشاعة في نفوس المجاهدين أثر سيئ.

ولكـن الحديـث عن الصلح بـين الدولتين أخذ يشـتـد، مما حدا بالمجاهدين – وعلى رأسـهم الزعيم "سـليمان الباروني" – إلى أن يحتجوا لدى "مجلس المبعوثان" في برقية جاء فيها:

"إننا لا نرضى بصلح يخـل بعثمانيتنا، ويجعل للعدو مدخلا إلى بلادنا، ولو أبرمته الدول ورضيه الخليفة.

ونحن، إلى الآن، نحارب باسـم العثمانيين والطرابلسـيين(1). فـإذا أبرم الصلـح على ما لا يرضينـا، أمكننا الاسـتمرار بالحرب باسـم الطرابلسيين فقط، إلى آخر قطرة من دمائنا. وليس بيننا متقاعس عن الحرب، أو ميال إلى العدو، أو مسـالم له، وقد أوجبنا الحرب على كل قادر دون استثناء.

وما دامت الدول العظمى ملتزمة بالحياد، فإننا نحارب باسـم دولتنا ووطنا، ومتى ظهر منها الوقوف في طريق انتصاراتنا وقوفا غيـر مشـروع، فإننا نعد ذلك منهـا تعصبا، وإذا فإننا سـنحارب باسم الدين فقط".

كذلـك ابـرق "سـليمان البارونـي" بتوقيعــه إلــى "مجلـس المبعوثان" الذي هو نائب فيه.

ولكـن ... ماذا في وسـع الدولة العثمانيـة، التي يأفل نجمها، أن تفعـل بـإزاء التواطؤ الأوروبـي عليها، والسـعي إلى تقليص إمبراطوريتها بسلخ أجزائها جزءاً بعد آخر؟

ولقـد حاولـت الدولة العثمانية أن تتماسـك، فـلا تنجر إلى مفاوضـات بينها وبين ايطاليا، حتى أن الصدر الأعظم أعلن ذات

(1) يعني بالعثمانيين هنا المسلمين، وبالطرابلسيين عرب ليبيا.

يوم: "إننـا عاقدون العزم على عدم إبرام الصلح إلا على أسـاس الاعتـراف بحقـوق ملكية السـلطان الحقيقيـة والفعلية على طرابلس الغرب".

كانـت تلك مـن الحكومـة العثمانية عاطفة طيبـة، يُؤازرها الـرأيُ العام الإسـلامي في تركيـا... ولكن ليت هـذه العاطفة الطيبـة كانت قد سـبقت هـذا التاريخ، ورافقهـا تعزيز للقوات العثمانيـة فـي هـذه المنطقـة العزيزة علـى أفئدة المسـلمين: طرابلـس الغرب، وشـقيقتها برقة... وأمـا الآن، والقوات في هذا الساحل الليبي قليلة، والسلاح شحيح، والذخيرة تنفد، وما تكاد البواخر العثمانية المحملة بالسـلاح تقترب من الشواطئ الليبية لإنجـاد المجاهديـن به، حتـى تهاجمها قطع الأسـطول الإيطالي المحاصر، فتستولي على الباخرة وما فيها!

واشـتـد في داخل تركيا النزاع بين "الاتحاديـين" و"الائتلافيين"، واندلـع لهيب الثورة في دول البلقان ضـد الدولة العثمانية، فإذا هي مضطرة إلى الدخول في مفاوضات مع إيطاليا الغازية.. وإذا المفاوضات تنتهي إلى عقد ما سُمِّي "معاهدة أوشي" بتاريخ 18 أكتوبر 1912.

وحتـى هـذا التاريخ – وقد مضـى على الغـزو الإيطالي عام كامـل – لم يكـن في أيـدي الغـزاة إلا مدينة طرابلـس، "زوارة" و"الخمس"، ورقعات صغيرة حول كل منها.

*****



وأمــا الـفريق الـثانــي، فيرى وجوب الاســتمرار فــي الجهاد إلى النهاية، مهما كانــت التضحيات. وتزعم هذا الفريق "ســليمان البارونــي" وما أروع رؤية القائد التي تســتلهم روح الشــعب في المقاومة والصبر والمجالدة.

الباروني.. زعيماً للمجاهدين

كان أهــم مــا في "معاهــدة أوشــي" وملاحقهــا، أن تتوقف الدولتــان (العثمانيــة والإيطالية) عــن القتال، وكذلــك ما جاء فــي الملحق رقــم -1- من المعاهدة وهو المنشــور الــذي صرح فيه الســلطان العثمانــي "محمــد رشــاد" بتنازله عــن حقوقه في طرابلــس وبرقة لأهلهما، ومنحهم الاســتقلال الداخلي المطلق التــام، ولم يرد في المعاهدة أو ملاحقها ما يقيد هذا الاســتقلال أو ينتقص منه.

ولقــد أذهل خبر إبرام المعاهدة زعمــاء المجاهدين، ووقع عليهم وقــوع الصاعقــة، وعاودتهم تلك الشــكوك مــن أن العثمانيين قد فرطــوا بحقوق وطنهم، عندما أهملوه فــي الماضي، وها هم – اليوم – يتعهدون بسحب قواتهم – على قلتها – من المعركة، دون أن يستشــيروا أبناء البلاد الذين هم أصحاب الشأن أولا وقبل كل شيء.

وســرعان ما تنادى قادة الجيش وزعمــاء المجاهدين وأعيان البلاد، إلى اجتماع تبادلوا فيه الرأي حول ما يتعين عمله إزاء هذا التطور الجديد؟

ومن حضر الاجتماع ســليمان الباروني، والهادي كعبار، وأحمد المرّيــض، وفرحــات الــزاوي... واتفقــوا – مبدئيا – علــى مطالبة الطليــان بالاعتراف بالاســتقلال الــذي منحهم إياه الســلطان

العثماني، والدخول معهم في مفاوضة لاستكمال ما في المعاهدة من نواقص...

غير انه ظهر بين هؤلاء الزعماء اتجاه آخر – وعلى رأسه "سليمان الباروني" – مؤداه الاستمرار في الجهاد إلى النهاية وعدم التسليم بالأمر الواقع.

والحق، لقد كان لكل من الاتجاهين مبرراته:

فالفريق الداعي للمفاوضات كان يتبين عجز طرابلس عن الاستمرار في مواجهة قوة إيطاليا التي لم تصمد أمامها الدولة العثمانية نفسها، وأن الأجدى – في هذه المرحلة – هو العمل السياسي الذي يهدف إلى الاستفادة من نصوص المعاهدة والفرمانات الصادرة من السلطان، بما يساعد في النهاية على إيجاد نوع من التسوية مع الإيطاليين، تسوية تحقق ما يمكن تحقيقه للبلاد، وتجنبها كوارث الاستمرار في الحرب على عجز وعدم تجهيز.

أما الفريق الثاني، فيرى وجوب الاستمرار في الجهاد إلى النهاية، مهما كانت التضحيات، وتزّعم هذا الفريق "سليمان الباروني"، ثم انضمّ إليه "محمد بن عبد الله البوسيفي" الذي لم يوافق بدوره على الدخول في مفاوضات مع الطليان.

******

وعلى حين بعث أنصار المفاوضات إلى الطليان برغباتهم، طالبين تعيين الزمان والمكان لبدء المفاوضة، مختارين مدينة

طرابلس مقرا لها، جاعلين أساس المفاوضة إضافة أربع عشرة مادة إلى المعاهدة التي لا يمكن أن تتم إلا بها.. فإن "سليمان الباروني"، نصير فكرة متابعة الجهاد، قد أعلم الطليان برغبته في إتمام الصلح والموافقةِ على المعاهدة، على شرط الاعتراف باستقلال طرابلس، الذي اعترفت به الحكومة العثمانية دون مفاوضات.

فكان أن تأثرت المفاوضات، وفشلت ... ووقعت الحرب.

وكان أنصار الجهاد قد اتخذوا من "يَفْرن"، في جبل نفوسة، مركزا لهم، واختاروا "سليمان الباروني" قائدا ورئيسا لحكومة طرابلس الجديدة، الذي قام بإبلاغ الدول العظمى والصحف الكبرى بإنشاء هذه الحكومة، وأرسل إلى أوربا وفدا للسعي لدى حكوماتها لنيل الاعتراف بها.

وأخذ "الباروني" يمارس سلطته في تعيين المتصرفين والقائمين والمديرين والقضاة والمفتين.. وفي ذلك يقول:

"وشكّلت ألأيا من الجندرمة والسواري والهجين، بلباس أروباوي جديد، ونظمت البوسطة في جميع الجهات، ومراكز للتلغراف والتليفون إلى حدود تونس، وأسست خط حرب مواجه للقوة الإيطالية.. ".

******

أخذ الطليان، في حربهم الجديدة، يوسعون مساحات المناطق التي احتلوها، فاستولوا، ما بين 16 نوفمبر 1912 و 15 فبراير

1913، علـى "العزيزية" و"زليطن" و"الزاويـة" و"غريان" و"ترهونة" و"سرت" و"بني وليد" وغيرها.. ولكنهم لم يستطيعوا أن يتجهوا نحو جبل نفوسة، بسبب ما أنشاه "سليمان الباروني" ورفاقه الذين التفّوا حوله، في جبهة حربية متماسكة لصد الزحف نحو الجبل والقبلة والجنوب...

وكان أول ما صادفت حكومة "الباروني" من الصعاب – في أثناء استعداداتها للجهاد – هو نقص ما في يدها من مال تدفع منه المرتبات والنفقات، فضلا عن الوهم الذي أصاب عزائم المجاهدين بعد هذا الخلاف بين أبناء الوطن، ما بين مؤيد للتفاوض وبين منكر له.

واضطر "سليمان الباروني" إلى الإيعاز بجباية الزكاة سدّا للعجز من نفقات الحكومة. وأرسل في ذلك موظفين لحصر أعداد الحيوانات التي يملكها المواطنون في المناطق التي تسيطر عليها حكومة المجاهدين. ولكن بدا أن نفقات الجباية أكبر مما يمكن جمعه من واردات الزكاة. ثم إن الحاجة ألحت حتى لم يعد في المستطاع الانتظار إلى أن تنضج الزروع فتجبى زكاتها.. أضف إلى ذلك تقدم العدو في كل ناحية، وضيق ما تبقى في أيدي المجاهدين من المناطق.

وقد استمرت هذه الحال منذ تأسيس الحكومة في أعقاب الإعلان عن معاهدة الصلح حتى أول مارس سنة 1913.

وكان الطليان على جلية من أمر هذه الضائقة التي حلت بـ "الباروني" وحكومته، كما أنهم لا يجهلون قلة ما في يده من

العتاد الحربي...

وتورد المراجع التاريخية نص كتاب سطَّره "سليمان الباروني" في هذه الفترة، ردا على كتاب جاءه من القائد الإيطالي يتضمن مطاعن في شخص الباروني ومقاصده..

يقول "الباروني" في ردّه:

"ليكن في علمكم أني لست متقلبا، ولا غدارا، ولا محبا للمال، ولا معاديا للإصلاح والمدنية.. ولكني رجل عرف قيمة الوطن، ومعنى الدين، ولذة الحرية، وفضيلة الشرف. فأنا أكثر الناس شوقا إلى رؤية بلادنا رافلة في حلل الترقي... على شرط حفظ كرامة سكانها، وبقاء استقلالها المشروع.

وإني لاستسهل، في جنب حرية النفس، كلّ صعب... وها أنا الآن أكل من الطعام أخشنه، وأنام على الأرض متوسدا سرج جوادي، واشرب الماء المملح تارة والمر أخرى، وأسير في الليل المظلم الممطر، ولا أرى هذا إلا ألذ من الشهد، ولا يزيد جأشي إلا ثباتاً..

فحافظوا، يا حضرة الوالي، على شرفنا وشرفكم، وأشيروا على دولتكم بالموافقة على استقلالنا حسب الفرمان السلطاني، وتعالوا نستعن بكم على تعمير هذه البلاد كما كان أجداده من قبل... ".

ردٌّ حكيم، يضطرم عاطفة وطنية أصيلة، وكرامة إنسانية نابعة من الأعماق، وذلك كله قد صيغ بأسلوب أدبي رفيع..

ولكن هل يتأثر به الاستعمار الإيطالي، الذي أخذ على عاتقه

– قبل أن يُدنس أرض ليبيا العربية – أن يفتك بالأهلين، ويشردهم في الصحراء ليحل محلهم أناسا من أبناء جلدته يأتي بهم من الجانب الآخر من البحر!

ولقد حاول الطليانُ استدراجَ "سليمان الباروني" بالأساليب السلمية للإيقاع به، ولكنهم لم يفلحوا في ذلك.. فأيقنوا أن الحل هو حشدُ كافة قواتهم لضرب هذه الجبهة المعارضة التي ما تزال متماسكة صامدة.

واستعدوا.

والمجاهدون تسلحوا بالصبر والثبات.

واستعرت حُميّا المعركة طوالّ النهار... فكان لا يسمع إلا أزيزُ الرصاص ودوي المدافع... كما ظهرت بشاعة الحرب في الأشلاء الممزقة والأعضاء المتناثرة، ولكن شعب ليبيا البطل كان عليه أن يدافع بسخاء عظيم ضريبة الجهاد وقد فعل، وضرب لأمته العربية من بعد مثالا في التضحية من أجل شرف الوطن.

معركة "الاصابعة"

فــي صبيحة يوم 23 مارس 1913، زحــف جيش الطليان، على المجاهديــن الذين كانوا قد تجمعوا تحت قيادة "ســليمان الباروني"، فــي مجموعــات كبيــرة اتخــذت مواقعها مــا بــين "الاصابعة" و"الرابطة "، للوقوف في وجه الزحف الإيطالي نحو الجبل.

تحرَّك العدو من موقع "تبودات" في ثلاث تشــكيلات، وسرعان ما اشتبك مع المجاهدين عند مرتفعات "الاصابعة".

وقد قام المجاهدون بهجوم تطويقي في بداية المعركة.

إلا أن تحـُّرك العــدو بتشــكيلاته المتعــددة فـوَّت إمكانيــة ســيطرتهم على الموقف، فقد كان يقذف بالكتائب إلى المعركة كلما فنيت كتائب.

وكانــت خطة العـــدو أن يوجه قوة مــن "تبــودات" نحو "وادي جندرمــة" باتجاه "الاصابعــة"... على أن تتحــرك قوته الأخرى من "العزيزية"... وذلك في محاولة لتطويق مواقع المجاهدين والقضاء عليهم، فتتم لهم بذلك الســيطرة على الجبــل، تمهيدا للتوغل في دواخل البلاد.

واســتعرت حميا المعركة طوال النهار، وكان لا يســمع إلا أزيز الرصاص ودوي المدافع... كما ظهرت بشــاعة الحرب في الأشــلاء الممزقة والأعضاء المتناثرة.

وقــد ثبت المجاهــدون لهذه الجيــوش المتدفقة مــن كل مكان، ورجحــت كفتهــم فــي "الرابطــة"، وأن رجحت كفــة العدو في "جندرمــة". وكانــوا جديرين، رغم كل شــيء، بالصمــود والثبات، لــولا أن نفد ما معهم من ذخيرة. فلما حل الظلام قاموا يدفنون شهداءهم، وينقلون الجرحى إلى "يفرن"..

تكبد العدو، في هذه المعركة، خسائر فادحة، ولكن بدا أنه قد حســب حســابها بدليل ما هيا للمعركة من كتائب وافرة العدة والعدد.

ولقد أبلى المجاهدون أحســن البلاء، وكانــوا يقاتلون تحت قيادة كبــار رجــالات الحركــة الوطنيــة، مثل "الشــيخ محمد ســوف" و"محمد بن عبد الله البوســيفي" الذي أظهــر في هذه المعركة بطولة نادرة.

وانســحب المجاهدون، وعلى رأســهم "ســليمان الباروني"، من ســاحة المعركة تحت جنــح الظلام، بعــد أن انكســروا في حرب استعد لها عدوهم أعظم الاستعداد، على حين أنهم لم يكونوا يملكون ذخيرة ولا مالا... انكســروا، أجل، وهم يدافعون عن الوطن وعــن قيــم الحق والشــرف والدين، بينمــا كان العــدو يحمل راية الباطل الجهير والاغتصاب المر والقسوة والقتل والتدمير.

وســميت هــذه المعركة "معركــة الاصابعــة"، ويطلق عليها أيضا "معركة جندرمة".

******

إنسحب المجاهدون إلى "يفرن"، ليضمدوا جراحهم. ولكن العدو لم يمهلهم، فاقتفى أثرهم، وصبحهم بجيوشه.

وكان قد أنهكهم التعب والانكسار ونفاذ الذخيرة. والعدو جاءهم بآلياته وعتاده وأعداده.

فاضطروا إلى الانسحاب من "يفرن"، وقصدوا "نالوت" طلباً لاجتياز الحدود إلى تونس.

والتجأ "سليمان الباروني" إلى تونس، هو والمجاهد الكبير "الشيخ محمد سوف" وعدد من أعيان المجاهدين.

وما أن تجمعوا في الأراضي التونسية، حتى طلبت منهم السلطة الفرنسية التي تحكم تونس، تسليم سلاحهم قبل كل شيء. فأجابوا بأنهم فاعلون متى ابتعدوا عن الحدود مسافة يأمنون معها على أنفسهم من ملاحقة الطليان وغدرهم! فلما سلموا سلاحهم، قالت لهم السلطات:

- إن الأراضي التونسية لا تتسع لكم! هيا ارحلوا!!

ذلك أن الاستعمار هو في كل مكان وزمان، وإن اختلفت هوية السادة فيه والزبانية.

وقد آثر بعضهم الرجوع إلى طرابلس، وفضّل آخرون الالتحاق بالمجاهد الكبير "محمد بن عبد الله البوسيفي" في "فزان"، ورغب "سليمان الباروني" السفر إلى الآستانة، واختار "الشيخ محمد سوف" الهجرة إلى بلاد الشام (حلب) ... فأمهلتهم السلطات أياما ريثما يتهيّأون للسفر(1).

ولما وصل "سليمان الباروني" إلى الآستانة، أكرم السلطان "محمد رشاد" وفادته، وأنعم عليه برتبة "الباشوية".

******

ولقد كتب "سليمان الباروني" الأديب، بعد عشرين عاماً، يصف هذه المعركة الدامية وكيف أن:

"الإيطاليين زحفوا بقواتهم العظيمة، التي اشتغلوا بجمعها وتنظيمها شهوراً، على قوات المجاهدين المرابطة حدود غريان فوق الجبل وفي سفحه. وكانت سقطة عظيمة سقط فيها من الرجال – خصوصاً الإيطاليين – ما " جعل الميدان مغطى بجثث القتلى والمجروحين، وتقدموا إلى أن أحاطوا بمراكزنا من ثلاث جهات قبل الغروب، ونظموا حركتهم لتطويقنا من الصبح وأسرِنا كلنا، وبقيت الجهة الرابعة – وهي الغربية – مفتوحة لنا ...

"فبعد أن جمعنا المجروحين ودفنّا بعض الشهداء، ارتحلنا في الليل تاركين المكان..."

"وعند مبارحتنا المكان، أوقد المجاهدون النار في الخيام وما فيها وما حولها، فعلا لهيبُها، حتى شوهد ضوءها ودخانها من بعيد. فعلم العدو أننا انتقلنا، ونجونا من الوقوع في شبكتهم التي نسجوها لأسْرنا."

(1) راجع في تفاصيل هذه المعركة: "جهاد الأبطال في طرابلس الغرب" تأليف الطاهر أحمد الزاوي، صفحة 170 وما يليها. وانظر "معجم معارك الجهاد في ليبيا" تأليف خليفة محمد التليسي. صفحة 108 و 109.

"وقاسـينا أعظـم المشـاق، فـي تلـك الليلة كـلهـا، فـي نقـل المجروحين على الأكتاف، وصعود الجبل من غير طرقه السـهلة... "

"ولمـا وجدنـا أن العـدو زاحف علينـا لا محالـة، اضطررنا إلى التشـتت، فقصد البعـض حدود تونـس، والبعض قصـد فزّان، فلحقته القوة الإيطالية قبل أن يضم شتاته.."(1).

(1) "سليمان الباروني باشا في أطوار حياته" تأليف أبي اليقضان الحاج إبراهيم، الجزء الأول، صفحة 113 و 114.



وأصـدر السـلطان العثماني فرمانـا بإلحاق طرابلـس الغرب بالدولة العثمانية من جديد، وفرمانا آخر بتعيين "سـليمان باشا الباروني" واليا على طرابلس وقومندانا عاما لها.

الباروني باشا واليا على طرابلس

إن الزعماء المخلصين هم هِبةٌ من الله للأمة، فهم عقلها المفكر ودرعها الحصين في أوقات الشدّة والأهوال.

و"سليمان باشا الباروني" زعيم قد امتلك من العزم المكين والصبر والمثابرة والعناد، ما يجعله جديراً لأن ينهض بالعبء الذي ألقاه على عاتقه شعبٌ شاءت الظروف أن يُبْتلى بمستعمر لا يرحم.

لبث "الباروني باشا" في الآستانة، منذ وصوله إليها في ربيع 1913. ولكنه ظلّ يتحين الفرص للرجوع إلى طرابلس الغرب لمعاودة الجهاد من جديد.

ثم إن ظروف السياسة الدولية أتاحت للدولة العثمانية أن تُعيد النظر في علاقتها بطرابلس الغرب. فكلّفت

أخا "سليمان الباروني" في الآستانة: "يحيى الباروني"، فسافر إلى طرابلس في أوائل عام 1916، لينظر في حال البلاد ويختبر وضعها ويرى شعور السكان، فنزل في "مصراته"، واتصل بزعيمها "رمضان السويحلي"، وأخبره بما تنويه الحكومة العثمانية من الاتصال بحركة الجهاد.

وعاد "يحيى الباروني" إلى الآستانة، ليبلغهم بما رآه من عزم الطرابلسيين على مداومة الجهاد. فكان ذلك مما قوى الأسباب

لدى أولياء الأمر في الآستانة لإلحاق "طرابلس الغرب" بالدولة العثمانية من جديد.

وهكذا أصدر السلطان "محمد رشاد" فرماناً بذلك، وفرماناً آخر بتعيين "سليمان باشا الباروني": والياً على طرابلس الغرب وقومندانا عاما لها.

ثم حملت الوالي الجديد غوَّاصة... نزل منها في "مصراته" في يوم من أيام أبريل 1916.

❋❋❋❋❋

كان أهل طرابلس، إذ ذاك، منقسمين إلى زعامات محلية متنافسة. ومنها ذلك العداء بين "مصراته" وجارتها "ترهونة".

فلما وطئت قدم "سليمان الباروني" أرض مصراته، وقد نهض لاستقباله أهلها، وفي مقدمتهم زعيمهم "رمضان السويحلي"، أقسم المحتفي به ألا يذوق طعامهم قبل أن يعاهدوه على مصالحة ترهونة... وفي نشوة اللقاء، عاهدوه على قبول كل صلح يقترحه بينهم وبين ترهونة.

ثم سار موكبه حتى ترهونة. وهناك استقبله أهلها، وفي مقدمتهم زعيمهم "أحمد المريِّض" ... فجدد المحتفي به قسمه ذاك، بالا يذوق طعامهم قبل أن يعاهدوه على مصالحة مصراته.

وتصالح الفريقان.

وأرسل "الباروني باشا"، والي طرابلس، كتابا إلى كبار المجاهدين

والأعيان والمشايخ، يخبرهم بأمره، ويقول:

"... وقد تفضل أمير المؤمنين فأمر حكومته بإلحاق طرابلس الغرب بالولايات العثمانية ، واقتضت إرادته إرسالي لإجراء الترتيبات اللازمة ، و تعهد أن يوالي المدد إلى النهاية ... وسنعرفكم بالمكان و اليوم الذي يصير فيه الاجتماع العمومي إن شاء الله . فانتظروا جوابنا " .

ثم إن " الباروني " اجتمع بأعيان البلاد . وتلي فرمان الإلحاق ، وفرمان التعيين ... وذلك بحضور جمع غفير من الطرابلسيين ورجال القبائل . وكان الناس ما زالوا قريبي عهد بدولة الخلافة ، ونفوسهم متأثرة بتبعيتهم لدولة مسلمة تدين بدينهم وتعتقد ما يعتقدون ، فلم يجدوا غضاضة من إلحاق بلادهم بدولة الخلافة مرة ثانية ، بل وجدوا في ذلك راحة لهم وقوة على ما هم في سبيله من الجهاد .

واتخذ " الباروني " من مدينة " الزاوية " مركزا له . ورفع فيها العلم العثماني ، في يوم مشهود ، بين دوي المدافع ، وإنشاد القصائد ، وهتاف الهاتفين .

ثم راح الوالي يبذل الجهود في مصالحة الزعماء ، الذين أضناهم التنافس ، ويوحد بين القلوب ، وولى كل زعيم المنطقة التابعة له ، على أن ينفذ تعليمات الحكومة المركزية و أوامرها .

و تفرّغ إلى تنظيم القوات الطرابلسية كلها في جبهة واحدة ، تمتد من حدود مصراته شرقا إلى مركز " زوارة " على الحدود التونسية .

ومما جاء في رسالة من " سليمان الباروني " إلى أحد كبار زعماء البلاد :

" إننا نحمد الله ، وأحوالنا في غاية ما يرام ، وقد عمرت كافة المناطق الحربية بالعساكر وكثرت الخيرات :

جبخانة وخرطوش وسلاح ودراهم وكسوة وماكينات لخدمة الجبخانة والبارود . وكل ذلك يأتينا بواسطة الغواصات التي لازالت ترد تلو بعضها البعض ، ولا تزال تحاصر مدن : طرابلس والخمس وزوارة (المحتلة من الطليان)، حتى قُطعت الطرق على الأعداء وأصبحوا في قحط وحصر، براً وبحراً، والحمد لله".

*****

وانطلقت كتائب المجاهدين تشنّ الغارات المنظّمة على القوات الإيطالية.

"أُقسم بالله العظيم أن أجعل نفسي ومالي فداء لوطني وحكومتي الجمهورية الطرابلسية، وأن أكون لعدوِّها عدوّاً، ولصديقها صديقاً، ولقانونها الشرعي مطيعاً"

الجمهورية الطرابلسية

استمرّت الحالُ على ذلك عاماً، ثم عاماً آخر.. وكانت الحرب العالمية الأولى، التي اشتركت فيها الدولة العثمانية، قد نشبت، وهاهي ذي تنتهي بانكسارها هي ومن معها من حلفاء، وضياع ولاياتها، فلم تعد منها طرابلس الغرب.

وفكر "الباروني باشا"، والمجاهد الكبير "رمضان السويحلي"، في تأسيس دولة مستقلة، تكون جمهورية طرابلسية لا علاقة لها بالدولة العثمانية(1).

وسرعان ما تمت الاتصالات في هذا الشأن بين زعماء البلد، ودُعي الأعيان للاجتماع في "مسلاتة"، فتوافدوا إليها من كل صوب.

وفي يوم السبت 13 من صفر سنة 1337 هجرية (16 نوفمبر 1918)، تمّ الاجتماع في "جامع المجابرة" في مسلاتة، ونودي بإنشاء "الجمهورية الطرابلسية".. و انتخب أربعة من رجالات البلاد أعضاء في "مجلس الحكومة"، وهم: سليمان الباروني ورمضان السويحلي و وأحمد المريّض وعبد النبي بن الخير، مؤجلين انتخاب رئيس للجمهورية حتى ينجليّ الموقف وتستقر الأمور.

(1) كانت ليبيا في ذلك الوقت، مؤلفة - في العهد العثماني - من ولايتين هما: طرابلس الغرب وبرقة، وقد نهضت كل منهما تناضل ضد الغزو الإيطالي، على حدة بادئ الأمر، ثم توحّد نضالهما تحت راية واحدة، وانتهى إلى قيام الدولة الفتية: "الجمهورية الليبية المتحدة".

كما انتخبوا في هذا الاجتماع التاريخي: "مجلساً للشورى": مؤلفا من ثلاثة وعشرين عضواً.

وقد أقسم الحاضرون جميعا يمين الولاء والإخلاص للجمهورية: "أقسم بالله العظيم، قابضاً بيدي على هذا القرآن الكريم، أن أجعل نفسي ومالي فداء لوطني وحكومتي الجمهورية الطرابلسية، وأن أكون لعدوها عدواً، ولصديقها صديقاً، ولقانونها الشرعي مطيعاً".

وأصدر مجلسُ الحكومة الرباعي بلاغاتٍ، وجّه أحدها إلى المواطنين بإعلان قيام الجمهورية الطرابلسية، ويدعو البلاغ الثاني الضباط الوطنيين إلى تقديم الطاعة للحكومة الجمهورية الجديدة والدفاع عن شرف الوطن، وأما الثالث فقد وُجِّه إلى رئيس الحكومة الإيطالية:

"تفتخر الأمة الطرابلسية بتتويج استقلالها بإعلان الحكم الجمهوري، وانتخاب نواب عنها من كافة أنحاء القطر، لمجلسي الحكومة والشورى، ولا هدف لها إلا ضمان وحدتها وحريتها داخل حدودها السياسية المعروفة، ولا تقصد إلا أن تعيش عيشة هنيئة مسالمة لجميع الأمم التي لا تحاول غصب حقوقها.

لذلك فالحكومة الجمهورية الطرابلسية تدعو الحكومة الإيطالية إلى الاعتراف بها، وسدِّ كل باب يضطر الحكومة الطرابلسية إلى مداومة الحرب إلى أن تحقق أملها المشروع".

وقد أضيف إلى هذا البلاغ ملحقٌ، نصَّ على أنه إذا اعترفت إيطاليا بحكومة الجمهورية، فإنها مستعدة للبحث في عقد

هدنة تنتهي إلى الصلح بين الدولتين.

كما أرسلت الحكومة بلاغات أخرى إلى كلّ من: رئيس الولايات المتحدة الأمريكية، ورئيس الوزراء الإنكليزي، ورئيس الحكومة الفرنسية.

******

ولكن لم يكن لأعداء حريات الشعوب أن يمنحوا رضاهم لمثل هذا النظام الذي جدَّ في البلاد، وهم الذين ما يزالون يمنون النفس بالتهام المدن والريف والصحراء ولا يقدرون على أن يحققوا من ذلك شيئاً مذكوراً.

لذلك رفضوا التفاهم مع الحكم الليبي الجديد، وأكدوا- أن حكومتهم لا تعترف بالجمهورية الطرابلسية، وأنها مستعدة للحرب حتى النهاية! وزادت بأن ألقت طائراتها على الأهالي منشورا طويلا يطفح بالتهديد والوعيد!

والحق، لقد أحدث إعلان تأسيس الجمهورية الطرابلسية أحسن الأثر في نفوس الشعب الطرابلسي، الذي دافع طوال سنوات سبع عن وطنه، وبذل المهج والأرواح، وتدفقت الآمال في الصدور بأن يطرد العدو، في ظل هذه الجمهورية الفتية ورجالاتها المجاهدين المخلصين، وأن يجلى عما احتله من مدن.

******

على أن الطليان ما لبثوا إن بعثوا، يوم 8 فبراير 1919، إلى

حكومة الجمهورية الطرابلسية بكتاب عجيب ... جاء فيه:

"... نظـرا لأن حضرة سـليمان الباروني قد عين، قبل نشـوب الحـرب الأوربيـة (أي العالميـة الأولـى)، عضوا في مجلـس أعيان الدولـة العثمانيـة، لذلـك لا تصيـر لـه صعوبـة إذا ركب على سـفينة وتوجه إلى الآسـتانة العلية وأقام بتركيا، مع كونه من أبناء القطر الطرابلسي"!

وكان موقّع الكتـاب، "الجنرال تارديتي" رئيس دائرة السياسـة العسـكرية، يريـد أن يقـول للبارونـي: "ارحل عنا غيـر مطرود!"، وقـد رأى فيه العقل المفكر والجهـاز المحرك لما يجري في الجمهورية الطرابلسية الفتية.

ولكـن هذا "الترفق" الـذي بدا في كتاب الجنـرال، كان يُخفي وراءه عجـزا... ولـم لا نقول: استسـلاما، أمام صمـود المجاهدين الصابرين الواثقين الشجعان؟

لقـد بذل الطليان جهدا ومالا وأرواحا، في سـعيهم لاحتلال إقليمي طرابلس وبرقة... فماذا نالوا بعد حرب سـبع سـنين - بل ثمانـي - تعاقب فيها الكـرُّ والفر؟ بضع مدن فقط، على البحر، لـم تكن تسـتطيع أن تمنح الأمن ولا الطمأنينـة للقوات المحتلة إلا تحت حماية الأسـطول الرأسي على السـواحل!! فأي انتصار عسـكري؟ أم أنه خـذلان مريع، أوْلى بإيطاليـا أن تدفن من أجله وجهها في التراب، خجلا من العسكرية الأوربية؟!!..

وقام، يوم 26 فبراير نفسه، قائد إيطالي آخر يجدد الكتابة إلى أعضاء مجلس الحكومة... قال:

"... إن الحكومة الإيطالية بيدها سـلاحُها، وجيشُـها حاضر، وهي تعلم كذلـك أنكم حاضرون. ولكن قبـل انصباب الطرفين في المعارك رأت واجباً عليها وعليكم حسم كل شيء سلما، لكي لا تسـفك الدماء... ولأجل هذا كل شـيء سلما، لكي لا تسفك الدمـاء... ولأجل هـذا فإننا نسـألكم الاجتماع، ونظـن أن رجالاً مثلكم - عقلاءَ ومدربين - لا يمتنعون عن الاسـتجابة إليه.. وإننا ننتظر إشعاركم: أين، وكيف، ومتى تكون الملاقاة؟..".

كان غريبـا، حقـا، أن ينشـد الطليان "الحل السـلمي"، ولهم - في تلك الآونة - "ثمانون ألف جندي" في طرابلس، كما يعترف سـفّاح ليبيا "الجنرال غراتسياني" في كتابه المشهور "نحو فزان"، قبل أن يقول بمرارة:

"كان يجـب أن نسـيطر علـى المسـتعمرة (يقصـد ولايـة طرابلس) عن طريق اسـتعمال المعدات الحربية وانتصار الجيش، لا عن طريق السياسـة الواهية، وهـي المفاوضات والصلح، في بلد علمنا من تقاليده أن السيطرة عليه لا تكون إلا بالقوة "!

أجل، إن أبناء طرابلس - ومثلها برقة - الليبيتين، لا يسـعهم أن يرضخوا للاسـتعمار إلا قسـرا وقهرا، وعلى أشـلاء المجاهدين الأبـاة، فهذا ما تمليـه عليهم الشـجاعة والمـروءة والدين، فكان غباء من مثل هذا الجنرال المتغطرس أن يتوقع من البواسـل الأباة الأحـرار أن يطأطئوا أمام جيوشـه الغازية رغـم معداته الحربية الفتاكة!!

******

ولقد تم الاجتماع الأول، وتلته اجتماعات أخرى، حاول فيها الطليان إحداث انشقاق في صفوف المفاوضين من المجاهدين دون جدوى.

وما بين قطع مفاوضات، واستئناف حرب ثم، عودة إلى المفاوضات – وذلك ابتداء من شهر مارس 1919 – اتفق الليبيين والطليان على قاعدة للصلح، وهي: " منح الشعب الطرابلسي دستورا يخوله مباشرة حقوقه المدنية والسياسية، ويعطيه الحق في القيام بجميع واجباته الكبرى، مثل الشعوب المتمدنة...".

وتمّ، في الأول من مايو 1919 ، وضع "القانون الأساسي" (أي الدستور)، وعين بموجبه أعضاء مجلس حكومة القطر الطرابلسي، وهم ثمانية، ولم يكن بينهم "سليمان الباروني"، الذي اعتذر عن الدخول في المجلس، وأصر على الاعتذار رغم الإلحاح عليه، وحجته في ذلك أنه "عثماني، ويريد الاحتفاظ بعثمانيته وبوظيفته في مجلس الشيوخ العثماني".

وسمِّي هذا الصلح "صلح بنيادم".

وما لبث "الباروني" أن غادر، في 6 نوفمبر 1919، طرابلس إلى الآستانة... ولكن صادف قدومه إليها الانقلاب الذي قام به "مصطفى كمال". فخابت آماله، وعاد أدراجه إلى طرابلس في مطالع العام التالي، بعد أن لبث في تركيا أشهرا ثلاثة.. عاد وصورة الوطن في قلبه.



وألقى عصا التسيار في باريس، عاصمة النور ومهد الحرية، كما يقولون... ولكنه وجد نفسه فيها أسيرا! بدا لنفسه كما لو أنه دخل إلى قفص!

ليل فرنسا الطويل!

عاش "سليمان باشا الباروني" - بعد عودته إلى طرابلس - منعزلاً، بعيداً عن السياسة وأضوائها، وهو يرى فرحة مواطنيه بما أخذوا يتمتّعون به من الأمن والسلم، مما حققه لهم "صلح بنيادم" بعد حرب دامية استمرّت سنوات.

ولكن الطليان ما كانوا يريدون لهذا الأمن أن يدوم، وهم يتطلّعون إلى أن يجعلوا من طرابلس وبرقة مستعمرتين لهم، فسعوا إلى بذر بذور التفرقة من جديد... فتوالت الدسائسُ ضد "الباروني" الوطني الغيور، واتُّهم بإحداث الفتنة...

فلم تلبثْ السلطات الإيطالية، أن طلبت إليه، في عام 1922، مغادرة البلاد، بعد أن أطلعته على "مضابط" زعمت أنها موقعة من أبناء وطنه، ومنهم أحبابه وحتى أقاربه، ادعت أنهم تقدموا بها راجين إبعاده حتى تهدأ الحالة... وقالت له السلطات:

- وسنأذن لك بالعودة، بعد خمسة عشرة يوماً!

فغادر الوطن دون أن يودع أهله وأولاده!

وقد حدَّث ابنته "زعيمة" - فيما بعد - يصف لها شعوره يوم كان على ظهر الباخرة في مياه طرابلس:

"... وقد خالجني شعور عميق بأني لن أراها مرة أخرى، فكادت جفوني تمتنع عن الحركة حتى أشبع من منظرها الحبيب. ولم

أنتبه إلى نفسي إلا بعد حين عندما توارت وراء الأفق وغابت الأنظار". وما أشبه الليلة البارحة... فكأن ما قاله "الباروني" لابنته هو نفس الكلام الذي قاله الأمير المناضل عبد القادر الجزائري وهو يودع مدينة الجزائر بعدما أجبره الاستعمار الفرنسي على مغادرة الوطن.

حملته ريح الاغتراب مجدداً إلى الآستانة، ثم إلى أنقرة، ولكنه وجد الانقلاب "الكمالي" قد أتى على كل شئ!

فحاول السفر إلى الشام، أو مصر أو تونس ... ولكن حالت دون تحقيق أي من هذه الرغبات كل من فرنسا وبريطانيا!

فاجتاز رومانيا في طريقه إلى أوربا، وهو يحمل جواز سفر باسم مستعار: "سليمان بن عبد الله العثماني"... إلى أن ألقى عصا التسيار في باريس، عاصمة النور ومهد الحرية، كما يقولون!

ولكنه لم يجدها كذلك ... وجد نفسه فيها أسيرا! البدا لنفسه كما لو أنه دخل - باختياره إلى قفص! فقد منعته السلطات من مغادرة فرنسا، بمجرد أن عرفته أنه "سليمان الباروني"!

وذلك سجين ... لم يكن يحسب له حسابا!

******

وتنقل، وهو في فرنسا، بين العاصمة باريس ومرسيليا، وكان يرنو بناضريه - وهو في الثغر الفرنسي المطل على البحر الأبيض

المتوسط: مرسيليا – إلى ما وراء الأفق، نحو وطنه الحبيب ليبيا ... ثم يكتب إلى مختلف الجهات المسؤولة، راجيا السماح له بالمغادرة، فلا يجد أذنا تصغي!

ولكنه وفق، ذات يوم، إلى أن يتحصل، باسمه المنتحل، على جواز سفر من بعض المراجع في مرسيليا، فأبحر في الحال إلى تونس، فوصلها في سبتمبر 1923 .

ولم يكد أصدقاؤه وأحبابه في تونس يتسامعون بخبر وصوله، حتى هرعوا إلى الفندق الذي نزل فيه، للتسليم عليه والاحتفاء به.

ثم إنه كلف أحدهم أن يذهب إلى رئيس قسم الشرطة الذي يقع الفندق في دائرته، ليعلمه بوجوده، أملا في أن يلقى رضى من السلطة، فيستقرّ في تونس هو وأسرته، وتلك أمنية طالما حلم بها.

فلما أُنبئ "الكوميسير" بذلك، هتف في اندهاش:

- الباروني هنا؟!

أجاب الصديق:

- أجل! وإنما جئت أطلب الإذن له بالإقامة عندي ضيفا كريما، وقد كان صديقا لوالدي من قبل!

فقال "الكوميسير":

- اسمع! إن كنت تريد أن تبقى صديقا لنا كما كان أبوك، فانزع يدك من "الباروني"!!

ثم كانت مخابرة بين "الكوميسير" وبين المراجع العليا ... فإذا رجال الأمن يطوقون الفندق، ويحولون بين الضيف المشتاق وبين لقاء أحبابه على نحو ما يشتهي...

ثم غادر تونس على أول باخرة أبحرت إلى مرسيليا.

******

واشتدت عليه المحنة، وهو في فرنسا، وضاقت به الأحوال... ولكنه ظل ذلك الحر الأبي الذي يشكو - إن شكا – دون أن يفارقه إحساسه بعظمته الشخصية وإيمانه بالله:

كتب في رسالة مطولة، بعث بها من باريس إلى صديقه "أبي اليقضان الحاج إبراهيم"، بتاريخ 17/1/1924 يشكو صروف الزمان، ويقول عن رسم له (أي صورة):

"... إن صاحب الرسم هو على ما تعلمونه، وبناته اللواتي لبسن أفخر الثياب وأكلن ألذَّ الطعام، وسكنَّ أعظم قصر في أجمل موقع في الأرض، يأكلن (اليوم) الخبز والشعير، ويلبسن الصوف، ويغزلنه بالأجرة لمن كان يتلقى إحسانهن صباحاً ومساء – وتلك حال لا تدوم بإذن الله – ويسكنّ دويرات بين كثبان رمل زوارة... ولو مدَّ صاحب الرسم يده، أو ألان جانبه، لكان أغنى من قارون! ومع ذلك كله لم يتأثر حزناً، ولم يسهر أسى وأسفا، بل هو هو لم ييأس، ولم يزل يقول:

يودون موتي، ولكنني
على رُغم أنفهم لا أموت

******

وعاد "الباروني " يطرق أبواب قناصل الدول في "عاصمة النور" ... وهو يؤكد لهم أنه قد اعتزل السياسة ولن يقوم بأي نشاط سياسي مهما كان شأنه، وإنما يريد أن يغادر هذا المنفى الذي دفعته إليه الأقدار دفعاً، ليعيش في تونس، أو الجزائر، أو سورية، أو مصر...قصد أن يجتمع بعائلته، التي تعيش بين كثبان "زوارة" في صحراء طرابلس.

فأما السلطات الفرنسية، فإنها ما تزال على إصرارها من منعه من دخول تونس والجزائر وسورية!

وأما السفارة البريطانية، فنها ترفض أن يقترب من ... الشرق العربي، وبخاصة مصرا!

وأما السفارة الإيطالية، فهل يرحمه الذين أخرجوه من بلاده دون أن يتيحوا له أن يودع أهله، وهم يقولون له: "سنأذن لك بالعودة بعد خمسة عشر يوماً"؟

وأما تركيا فانه هو نفسه لا يريد العيش في ظل العهد "الكمالي".

*****

ثم جاء الفرج، بعد هذا الليل الفرنسي الطويل: كتب إلى "الشريف حسن" – وقد كان يعرفه في الاستانة – يطلب منه تسهيل السفر له إلى مكة لأداء فريضة الحج (سنة 1342 هجرية).

وكان قد كتب يوماً – وهو العثماني النزعة – مقالا في جريدة

"الصواب " التونسية، ينتقد المعاهدة الإنكليزية الحسينية، فلم يَفُتْه أن يبعث الآن بالعدد الذي نُشِر فيه المقال، إلى "الشريف حسين" ليطلع عليه، فيكون على علم من أمره وبينه، وذلك تصرفٌ منه يتّسم بالاعتزاز بالرأي- رغم ليل محنته المدلهم – مع الحرص على أن تتم معرفة الطرف الآخر به معرفة صحيحة لا تشوبها شائبة.

وقد اّطلع "الشريف حسين" على المقال، وقال معلّقاً:

- إن الباروني ما كتب إلا عن حسن نية ونصيحة.

وأمر بالإذن له بالحج نورا.

وعندئذ أتيح "للباروني" أن يغادر مرسيليا، في شهر يوليو 1924، متحررا من أغلال الأسر – بعد أن أمضى فيه عامين اثنين – متوجها إلى الديار المقدّسة ... وكان يوماً سعيداً، لا يَعْدِ له إلا يوم تحرره من السجن في عهد "السلطان عبد الحميد".

وعندما توقفت به الباخرة في الإسكندرية، مُنع من النزول إلى البر.

ولكنه ما إن وصل "جدة"، يوم 28 ذي القعدة، ووطئت قدمه رصيف الميناء، حتى رأى جماعة يسألون الحجاج لدى رصيف الميناء، حتى رأى جماعة يسألون الحجاج لدى مغادرتهم الباخرة:

- هل فيكم "سليمان باشا الباروني" ؟

فأومأ أحدهم إليه، فأقبل عليه السائلون، وسلموا مرحبين، وقال رئيسهم:

- أنا معتمد صاحب الجلالة، وقد أمرني باستقبالكم والقيام بما فيه راحتكم.

" وفي الحال أمر "المعتمد" أعوانه بإخراج أشيائي – والحديث هنا "للباروني" – وأشياء من معي من أشراف الشام: من الجمرك بدون تفتيش. وذهبنا إلى بيته الذي خصصه لنزولي، وهو مفروش منظّم فوق ما يتصور".

وقد كتب "الباروني "، في اليوم التالي من وصوله جدة، رسالة إلى أحد أصدقائه، ضمنها مشاهداته وما طفح في صدره من أحاسيس البهجة والفرح.

ثم إن الملك أكرمه، واحتفى به، وقلّده نيشان "الاستقلال"...

ومع ذلك، يقول "الباروني" في إحدى رسائله: "لم أقدم بيعة الخلافة كما بايع غيري"!

وذلك ثبات منه على المبدأ، يُذكر له.

******

لقد عانى من أوصاب الحياة كثيراً.
وأما داء الملاريا، فقد هدَّ جسمه هدًّا،
وهو صابر – كعهده – متجلِّد.

نهاية المطاف

كانت زيارة "سليمان الباروني" للديار المقدسة للحج أولا، وللتخلص من الأسر والنفي الطويل الثقيل. فلما آن له لأن يغادر، توّسطتْ له الحكومة العربية – حسب رغبته – لدى السلطات الإنكليزية ليزور "مَسْقَط" و"عُمَان". فوافقت السلطات الإنكليزية على ذلك، ورحبت به الأسرة الحاكمة.

وفي رُسُوِّ الباخرة في ميناء مسقط، صعد إليها وزراء حكومتها لملاقاته والترحيب به. وكان "السلطان تيمور" غائباً في الهند، فأرسل إليه من هناك، برقية ترحيب:

"قدومٌ مبارك لبلادنا. أرجو أن يكون شعبي قد استقبلكم بكل احترام".

فكانت هذه اللفتة الكريمة جديرة بأن تنسيه كثيراً مما عانى من آلام النفي والاغتراب.

*****

وأقام "الباروني" في مسقط.

وكان همه الدعوة إلى جمع الكلمة، والاتحاد، والنهوض بالمجتمع لمجاراة الأمم الحية. فلما مضى عليه عامان، وهو فيها، كان قد كسب محبة الحاكم والمحكومين وإذا بلاغ يصدره الإمام، فينطلق المنادون بإعلانه في الأسواق:

"من إمام المسلمين محمد بن عبد الله الخليلي إلى جماعة المسلمين.

ليعلم الحاضر الغائب... أني فوضت الأمر في تنظيم المملكة تنظيما صالحا... للشيخ سليمان الباروني فبيده الملكية والعسكرية والمالية والسياسة الداخلية والخارجية... فمن يخالفه أو يقف في سبيل أعماله الإصلاحية يعاقب... ولا يلوم إلا نفسه..."

*****

على أن "الباروني"، القوي الجسم المتين البنية، الذي ما شكا من مرض في طول ما خاض من معارك وما لقي من عناء الإبعاد وشظف العيش، أخذت حُمَّى الملاريا بتلابيبه منذ دخل بلاد عُمان، فهو يغلبها تارة وتغلبه.

وما كان لهذا العقل المفكر أن يهدأ ولهذا الجسم أن يَكِلَّ، فظل يعمل، ويتنقل بين دول الخليج، ويقرأ، ويفكر، ويكتب المقالات والرسائل المطوّلات دون ملال...

ولم يكن له أن يغفل عن مشكلة فلسطين، وهي إذ ذاك في احتدامها، فكتب في عام 1932 إلى "لجنة نزع السلاح في عصبة الأمم":

"وبمناسبة ما يجري من الفظائع المؤلمة في فلسطين المظلومة، المنكوبة بالصهيونية، تلك الفجائع التي هزّت العالم الإسلامي أجمع، أرجو – باسم السلم العام – من مجلسكم

الموقر، إعادة النظر في رسائلي المقدمة إليكم في تاريخ.."

"وكل محب للسلم يؤمل أن توفقوا بحكمتكم إلى أن تعاد لفلسطين حقوقها المهضومة، فتسكن العاصفة، فأن الصهيونيين – ولو بلغوا الملايين – لا يستطيعون أن يحموا أنفسهم في فلسطين، فضلا عن أن يحموا السكة الحديدية، والمطارات، وأنابيب البترول، إذا انفجر بركان حرب عامة...".

******

وداء الملاريا، لم يصطلح على "الباروني" الأب وحده، بل تعداه إلى ابنه الشاب "إبراهيم" – ذلك الذي كان قد تلقى منه تلك الرسالة التي أشرنا إليها في مطلع هذا الكتاب – وقد التحق به في مسقط هو وأفراد الأسرة.

توظف "إبراهيم الباروني" في القصر الملكي في العراق عام 1943، بغية الابتعاد عن بيئة مسقط الراشحة بحمى الملاريا، ولكي يتاح له أن يدرس الحقوق في الجامعة ببغداد.

ولكن أحوال الأب المادية- وقد أضاعت الفتن الداخلية في طرابلس، ثم الاغتراب، كل ما كانت تملكه يمينه – ظلت على غير ما يرام.

وهنا نراه يكتب إلى أصحابه في الوطن الحبيب، يحدّثهم فيقول إن له نحو عشرة آلاف نسخة من الكتب التي كان قد طبعها في "مطبعة البارونية" بالقاهرة، وهي ما تزال مخزونة هناك، متطلعا إلى بيعها إن أمكن بطريقة اقترحها...

وقام أصدقاؤه البررة باستيراد كمية من هذه الكتب، المخزونة بالقاهرة منذ عام 1908، بعد تجليدها، وعمدوا إلى "ترويجها بين الإخوان بأثمانها المناسبة، وكلما جمعنا منها مبلغاً أرسلناه إليه للترفيه عنه"، كما قال أصدقاؤه فيما بعد.

******

لقد عانى "سليمان الباروني" من أوصاب الحياة كثيراً، وعب من المرّ والعلقم... وأما داء الملاريا، فقد هدّ جسمه هدًّا وهو صابرٌ – كعهده – متجلّد.

ثم رأى، في عام 1940، أن يسافر مع "السلطان سعيد" إلى الهند، بقصد المعالجة من هذا الداء العضال.

ولكنه – كما تقول ابنته "زعيمة" – كان يُبَيّت أمرا آخر هو السفر إلى إحدى الجهات في تونس أو مصر ليجتمع بمواطنيه، آملا العودة إلى أرض الوطن.

قالت ابنته، يوم الوداع، وهي تشير إلى حفيديه (ابني إبراهيم):

- أوَ تترك "طارقا" و "عز الدين"، يا والدي؟

فوقف تلقاءها، في مشيبه، وقال:

- وماذا على طارق وعز الدين، وأنتم في رفقتهما؟ وإن أخي السلطان يرعى صوالحكم جميعاً، وهو منكم بمنزلة الوالد والوصي!

واغرورقت عيناه.

لكأنما كان يحس أن هذا آخر موقف له بين أولاده وأحفاده.

كان ذلك صبيحة عيد المولد النبوي (12 ربيع الأول 1359).

فلم يكد يصل "بمباي"، يوم 23 مايو 1940، حتى سقط مغشياً عليه. فحُمِل إلى المستشفى.

فلما أفاق كان قد فقد القدرة على الحركة والنطق معاً.

وأخذ يردد دون طائل حرفين اثنين:

- ز ... م...

ولم يكن لإخوانه العُمانيين الذين يرافقونه، أن يفهموا من ذلك شيئاً. ولعله كان يريد أن يلفظ اسم ابنته "زعيمة" ليوصيها بحفيديه، فيعسر عليه النطق.

واغرورقت عيناه بالدموع، وفاضت روحه إلى بارئها(1).

وفي الغربة، أيضا، مات "سليمان الباروني" رحمه الله.

******

(1) "سليمان الباروني باشا في أطوار حياته". تأليف أبي اليقظان الحاج إبراهيم، الجزء الثاني. صفحة 243 و 244.

الخاتمة

وهكذا انطفأت حياةُ رجل كان مثالا حيا للتقي والورع، وحب الوطن، وكراهية الأعداء، والثبات على المبدأ، والعناد في سبيل الحق، والاعتزاز بالنفس، والصبر على المكاره، والجرأة، والشجاعة، فضلاً عن تَغنّيه بالوحدة الإسلامية...

وشاهدٌ صغير على بعض ذلك: هو العهد الذي قطعه على نفسه – يوم الغزو الإيطالي – أمام إخوانه، بأن لا يحلق شعر رأسه ما لم يتطهر وطنه من دنس المستعمرين!

وقد برَّ بعهده، فلم تمس شعره يدُ حلاق، من يوم إعلان احتلال طرابلس (عام 1911) حتى وفاته (1940)... وكم أرهقه هذا الشعر الطويل، بتلك "الجلدية" التي كان يضطر إلى إخفائها تحت قميصه! وكم سبب له المضايقات، في أثناء تنقله في تركيا، فقد كان يُظن أنه راهب مبشر قد جاء البلاد ليحوك مؤامرة أو مكيدة!

وبعد، أليس عجيباً أن يعيش رجلٌ – هذه صفاته – مُبعدا عن وطنه الحبيب: عامين في فرنسا، وستة عشر عاما كاملة في أطراف الجزيرة العربية ... يهزه الشوق والحنين إلى مسقط رأسه، فلا يُسمح له بأن يستظل سماءه، أو ينهل من مائه، أو يستنشق عبير أرضه؟!!... ثم تشاء الأقدار أن يُغمض عينيه الإغماضة الأخيرة، وهو أكثر بعدا: عن وطنه الصغير ليبيا!

قصارى القول: كان "سليمان الباروني" يستجمع عديدا من الصفات الحميدة والخلال النادرة، وكان مثالاً رائعاً للرجال الذين يحملون في قلوبهم وعقولهم الوطن، ويعملون من اجله، ويضحون في سبيله، وما أنبله وهو يقاتل بلا هوادة، ويقضي شبابه وكل أيامه في سبيل الوطن وشرف الوطن وما أروع أن يتوج نضاله بخاتمة طيبة عبر الأجيال اللاحقة فتستقل ليبيا، مما يؤكد أن تواصل النضال لابد أن يحقق معجزة النصر.

